التكافل الاجتماعي
عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه

عامر محمد نزار جلعوط
ماجستير في الاقتصاد الإسلامي

الحمد لله الذي منّ علينا بأنوار اليقين، وجنّبنا زيغ الزائغين وضلال الملحدين، ووفقنا للاقتداء بسيّد المرسلين محمد الصادق الأمين، فصلاة الله عليه وعلى آله وعلى من أرشدنا للتأسي والاقتداء بهم من الخلفاء الراشدين والصحب الأكرمين، الذين اعتصموا بحبل الله المتين، ولم يتفرقوا عن إنصاف كل عباد الله المؤمنين وخلق الله أجمعين وبعد:

فهذه واحة إيمانية في تكافل وتعاضد خير ثلة من أصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وتتضمن الحديث عن التكافل الاجتماعي عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكيف لا يفعل ذلك و قد وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرأفة والرحمة للأمة حيث لم يبخل في متابعة أحوال الناس في جميع النواحي الاجتماعية وسننظر في الصور التالية في شخصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه وذلك كما يلي:

الصورة الأولى:

وموطن هذه الصورة هو مكة المكرمة، وقد تكررت وتعددت مشاهدها لحماية المستضعفين بالأرض، وذلك حينما ازداد أذى المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه الكرام رضوان الله عليهم، فاشترى الصديق بلالاً الذي ليس له قبيلة ترعاه وتحنو عليه، لكن له إخوة كثيرة في نسب واحد هو (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

لقد كان أمية بن خلف يعذب بلالاً فوق الرمال المحرقة الملتهبة، ويأمر غلمانه ليحملوا صخرة عظيمة، ويضعوها فوق صدر بلال وهو مقيد اليدين، ثم يقول له: لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيجيبه بلال بكل صبر وثبات: أحد أحد.

فجاء أبو بكر رضي الله عنه، وفاوض أمية بن خلف، وقال له: ألا تتقي الله في هذا المسكين ؟ حتى متى ؟ قال أنت الذي أفسدته، فأنقذه مما ترى، فقال أبو بكر: أفعل عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه به قال قد قبلت فقال هو لك . فأعطاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه غلامه ذلك وأخذه فأعتقه ، وغدا بلال فيما بعد أولّ مؤذن بالإسلام.

واستمر الصديق في سياسة فك رقاب المسلمين المعذبين والحنو على المساكين، في سياسة اجتماعية تكافلية قائمة على الإحساس الرفيع بكل المستضعفين، تحررهم من كل خضوع وخنوع إلا لله رب العالمين.

لقد أنفق أبو بكر رضي الله عنه قسماً كبيراً من ماله في شراء المستضعفين، وعتقهم لله، وفي الله، قبل أن تنزل التشريعات الاسلامية المحببة في العتق وتحرير الرقاب، والمحذرة من بيع الأحرار، كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي (قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر ورجل باع حرا فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره) .

ولم يكن الصديق يقصد من وراء ذلك إلا وجه الله تعالى، ولقد أجاب والده عن ذلك قائلاً: (يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله عز وجل) . إذاً إنه الإخلاص لله رب العالمين، والذي ينبغي أن يكون المقصد الأساس في كل أمر وفي كل عطاء، كي يكون مقبولاً عند الله تعالى ثم عن الناس، ولقد مدح الإسلام من يجود بالصدقات مع الإخلاص لله وحده، ووعدهم بالأجر والثواب والأمان والسعادة شرط ألا يقوم بالمن والأذى لعباد الله قال الله تعالى (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) البقرة: ٢٦٢.

لقد سار التعاون والتكافل على هذا الأساس المتين بين أفراد المجتمع المكي المسلم، فكان قمة من قمم الخير والعطاء الصافي من كل شائبة، والنقي من كل أذى، وما أحوج المسلمين اليوم أن يحيوا هذا المثل الرفيع، والمشاعر السامية ليتم التلاحم والتعايش، والتعاضد بين أبناء الأمة التي يتعرض كثير من أبناءها للأذى في كثير من بقاع الأرض.

الصورة الثانية:

و يظهر في مشهد هذه الصورة حال صدّيق الأمة مع أحد أقربائه، ومن بين الأدلة التي تشير إلى تكافل أبي بكر رضي الله عنه مع ذوي القربى قول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم: (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) النور: ٢٢.

قال الإمام القرطبي: المشهور من الروايات أن هذه الآية نزلت في قصة أبي بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه ومسطح بن أثاثة . وذلك أنه كان ابن بنت خالته وكان من المهاجرين البدريين المساكين. وكان أبو بكر رضى الله عنه ينفق عليه لمسكنته وقرابته، فلما وقع أمر الإفك وقال فيه مسطح ما قال، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً، فجاء مسطح فاعتذر، وبيّن أنه كان يسمع ولا يقول.

فقال له أبو بكر: لقد ضحكت وشاركت فيما قيل، ومر على يمينه، فنزلت الآية والتي تتناول الأمة إلى يوم القيامة بألا يغتاظ ذو فضل وسعة فيحلف ألا ينفع من هذه صفته غابر الدهر. وعندئذ قال أبو بكر رضى الله عنه: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: لا أنزعها منه أبدا .

لقد كان من عادة صديق الأمّة رضي الله عنه أن يحسن حيثما جاءت أوامر الإسلام بذلك، ومن ذلك ما شهد له هذا الخبر القرآني كيف كان مع عائلته، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فذلك يعم كل عباد الله المؤمنين بألا يبخلوا على ذوي القربى وغيرهم كما قال ربنا تعالى: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) النساء: ٣٦.

فالآية تحث على الإحسان لذوي القربى بعد الوالدين، وذلك بحسب أحوالهم وحاجاتهم، فكيف لصدّيق الأمة رضي الله عنه ألا يكون من أوائل من يمتثل لأمر الله تعالى وهو الذي لم يكن يفوّت طريق برٍّ وخير في التكافل الاجتماعي إلا وسبق فيه، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من أصبح منكم اليوم صائماً ؟)

فقال أبو بكر : أنا، فقال : (من أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟)

قال أبو بكر : أنا، فقال : (من تبع منكم اليوم جنازة ؟)

فقال أبو بكر : أنا، قال : (من عاد منكم اليوم مريضاً ؟)

قال أبو بكر : أنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما اجتمعت هذه الخصال قط في رجل إلا دخل الجنة) .

ومن ضمن ما جاء في السنّة النبوية أن التكافل الأسري العائلي فيه أجران: أجر الصلة، وأجر الصدقة، وهذا ما يذكرنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الصّدقة على المسكين صدقة وهي على ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة) . ونشير في نفس الوقت إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (أن أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح) .

و الكاشح هو العدو الذي يضمر عداوته ويطوي عليها كشحه أي باطنه فالصدقة عليه أفضل منها على ذي رحم غير كاشح لما فيه من قهر النفس للإذعان لمعاديها ، كما أن الإنفاق على القريب المحبوب مشوب بالهوى فأما على المبغض فهو الذي لا شوب فيه . وليس قريب الصدّيق الذي حلف ألا ينفق عليه ليس من هذا القبيل أبداً فهو صحابي بدري جليل، ولكن هذا إرشاد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحرص على رعاية القرابة في السرّاء والضراء معهم.

أما الصورة الثالثة :

وفيها تكافل الصديق مع مجتمع البنيان المرصوص حيث كان أبو بكر رضي الله عنه يحلب للحيّ أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا تحلب لنا منائح دارنا فسمعها أبو بكر، فقال: بلى لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو ألا يغيّرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهم فربما قال للجارية من الحي يا جارية أتحبين أن أرعى لك أو أصرح فربما قالت ارع، وربما قالت صرح، فأي ذلك قالته فعل، فمكث كذلك بالسنح ستة أشهر، ثم نزل إلى المدينة، فأقام بها، ونظر في أمره فقال: لا والله ما تصلح أمور الناس التجارة، وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر في شأنهم ولا بد لعيالي مما يصلحهم فترك التجارة، واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه، ويصلح عياله يوما بيوم .

لقد كان رجاء الصديق ألا يتغير عن أمور الخير التي كان يقوم بها تجاه مجتمعه، وحاول أن يبقى مداوماً على ذلك لستة أشهر، وهذا ما يذكرنا بما روته بنت الصديق وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي العمل أحب إلى الله قال (أدومه وإن قل) . فكيف بعمل عظيم يمد النفس بفيض الحلم، ويزينها بزينة التواضع، ويشكل جزءاً مما قام به أنبياء كثيرون كشعيب وموسى وحتى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو رعاية الأغنام، ولم يرد رضي الله عنه أن يكسر بخاطر تلك الفتاة الصغيرة التي علمت أن أبا بكر أصبح خليفة المسلمين بل ظل على منهجه في جبر خاطرها ومد يد العون العملي لجيرانه في الحي وهذا ركن قويم في التكافل الاجتماعي بين الجار وجيرانه، فلمّا شعر أنه لا بد من التفرغ لإصلاح أمور الناس ترك حيّه ونزل إلى المدينة المنورة، وفي هذا إشارة عملية إلى فقه الأولويات، فأمور المسلمين العامة أولى من أيّ أمر آخر ولو كانت من خصوصياته رضي الله عنه.

إن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلمنا أنه لا ينبغي للنفوس أن تتغير بتغير المسؤوليات وحجم الدراهم والفلوس، بل إنه أمرب الاستقامة على الخيرات وصنع المعروف.

كما يعلمنا صدّيق الأمة رضي الله عنه ألا يستخف المسلم بعون أخيه مهما كان العون بسيطاً، وهذا ما قاله لنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: (من نَفَّسَ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نَفَّسَ الله عنه كربة من كرب الآخرة ومن ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) .

الهوامش:

١. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(أرحم أمتي بأمتي أبو بكر..) أخرجه الترمذي والنسائي وغيرهما.
٢. سيرة ابن هشام جـ١ ص٣١٧.
٣. صحيح البخاري.
٤. السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص٣١٩.
٥. مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف كنيته أبو عبادة وقد قيل أبو عباد شهد بدراً توفي سنة أربع وثلاثين ٥٦ سنة. الثقات جـ ٩ ص٣٨٣: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، دار الفكر ط١، ١٣٩٥ هـ.
٦. الجامع لأحكام القرآن لابي عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي جـ١٢ ص٢٠١.وروى البخاري نحو ذلك كتاب المغازي باب حديث الإفك جـ٤ ص ١٥٠٧، دار ابن كثير ط٣.
٧. بمعنى أبداً.
٨. أخرجه البخاري في الأدب المفرد، كذا ابن خزيمة في صحيحه.
٩. أخرجه الترمذي جـ٣ ص٤٦ كتاب الزكاة باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة، كذا الحاكم في المستدركجـ١ ص٥٦٤.
١٠. أخرجه الإمام أحمد في المسند ج٥ ص٤١٦، الحاكم جـ١ ص٧٦.
١١. التيسير بشرح الجامع الصغير جـ١ ص ٣٧٠، للإمام زين الدين عبد الرؤوف المناوي مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ١٤٠٨هـ ط٣.
١٢. كشف المشكل من حديث الصحيحين جـ ١ ص١١٠٢ لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، دار الوطن – الرياض – ١٤١٨هـ .
١٣. المنيحة: بفتح فكسر، ج منائح: الناقة الممنوحة، وكذلك الشاة، ثم سميت بها كل عطية.
١٤. الصَريح: اللَبَنُ إذا ذهبت رَغْوَتَه.
١٥. السنح: بضم السين والنون معاً وكان أبو ذر يقولها بإسكان النون منازل بني الحارث بن الخزرج بعوالي المدينة وفيه نزل أبو بكر الصديق مشارق الأنوار على صحاح الآثار جـ٢ ص ٤٦٣، للقاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، المكتبة العتيقة .
١٦. تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص٣٥٤، محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٧.
١٧. صحيح مسلم.
١٨. أخرجه مسلم في صحيحه.